

# تطور البنية الأيديولوجية عند التيارات الفكرية

أ/ عباس أبو تيم شريفة



بما أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فإن التصور القاصر عن كنه التيارات الفكرية المعقدة في تركيبتها والمتطرفة في بنائها الأيديولوجي بالرغم من ادعائها الأصالة يحمل البعض من المفكرين على المجازفة في توصيفات وإطلاق الحكم عليها بظاهر من النظر لا يغوص في جنباتها ولا يأخذ بعين الاعتبار حالة الانفصال والتلاقي التي تخرج غالباً بمكافئ جديد. حصل في التاريخ العديد من الاقترانات الأيديولوجية والتلاقي الفكري المصلحي بين التنظيمات والجماعات والدول وبين المدارس والتيارات الفكرية.

ونلحظ هذا الأمر من اقتران الروم مع النصرانية واقتران الفرس مع الشيعة واقتران البعشين مع الغلة فينتجون حملأ يحمل مورثات التيار الفكري في ظاهره، ويحمل مورثات التنظيم والدولة في سلوكه وباطنه.

ويفسر هذا الأمر أن بعض الدول والتنظيمات تضطر في مرحلة الانحدار إلى البحث عن منظومة أيديولوجية لتشد من أعصاب سلطانها المسترخي وتعيد له الحيوية والشباب تفادياً للسقوط والشيخوخة كما فعل قسطنطين الرابع بفرض النصرانية على الروم لحفظه على قوة سلطانه، بحشد وتجنيد المؤمنين بالفكرة لخدمة سلطان السياسة وإيهامهم أن ما يضخون به في سبيل الدولة والسلطان هو من أجل الفكرة الحق.

هذه الاقترانات الأيديولوجية هي دائماً مصلحية لذلك يكون التلاقي بين سليياتها وتشوهاتها وليس بين بقية الخير الكامنة فيها، لذلك قالوا ترميتم النصرانية ولم يتنصر الروم.

كذلك تفرست الشيعة ولم يتسيّع الفرس وتصهينت اليهودية ولم يتهدى الصهاينة وتبعثنت المارقة ولم يتسلّف البعشين. تلقيحت النصرانية بوثنية الروم وتلقيحت الشيعة بأساطير الفرس وتلقيحت المارقة بإجرام البعشين.

فصار عندنا تيارات هجينة مركبة في أيديولوجيتها ليس لها هوية ثابتة. هذه التيارات الهجينة من زيجات الأيديولوجيات الأبعد تحتاج منا إلى إعادة النظر في ماهيتها باعتبارها نازلة مستجدة ولا

يجوز قياسها والحكم عليها من منشئها الأول ولا بد من إجراء عملية تشريحية لنسيجها المركب. فأغلب هذه التيارات اليوم تمثل ركاماً من التشوهات الفكرية تختلف عن مرحلة تأسيسها وصارت تحمل في داخلها بذور الصراع الساخن، وهي قابلة للتشظي في كل وقت.

وللوقوف على كنهها فهي أشبه بالطبقات الجيولوجية تختلف من عصر إلى آخر، تختلف بحسب الترسيبات الفكرية التي تفرضها العوامل الخارجية من الضغوط، فأنت ترى **أديبيات بعض الجماعات ما قبل دخول السجون مختلفة تماماً عن ما بعد دخول السجون، كالاختلاف بين شعار الجهاد سبيلاً إلى أدبيات دعاة لا قضاة.**

لا تستطيع إطلاق حكم واحد على الجماعات الإسلامية في كل مراحلها وحقب تطورها فحكمها في مرحلة التأسيس والعصبية للفكرة ليس كمرحلة الذروة وليس كمرحلة الانحدار ومختلف عن مرحلة الاختراق والانحراف.

وكذلك مرحلة ممارسة دور المعارضة السياسية المولع بالنقد والمظلومية والمثالية، ليس كمرحلة ممارسة السلطة الموسوم بالتبشير والتغاضي عن الأخطاء، وحتى تحافظ على شرعيتها وتوهم الأتباع أنها لا تزال تنتمي لتلك البذور والجذور التي نبتت منها فإنها تحاول دائماً أن تعطي تفسيراً وتؤيلاً سائغاً لنظريات الآباء المؤسسين لتبرير لهم أنها لم تخرج عن الخط الأصيل، ولا تزال متمسكة بجذورها، بعملية تشبه تعطيم الشجرة من غير جنسها لتحصل على ثمرات مختلفة ولكن بنفس السيقان والجذور القديمة.

البون ملاحظ في كل التيارات فليس مرحلة العصر كمرجئة السلف ولا خوارج العصر كخوارج السلف ولا شيعة اليوم كشيعة السلف ولا سلفية اليوم كسلفية السلف ولا صوفية العصر كصوفية السلف ولا إخوان العصر كإخوان المؤسسين.

وقد تشهد بين أشد التيارات عداوة ومحاصلة في مرحلة سالفة نقطة التقاء تكاد تكون متطابقة.

وهذه الطفرات ليست حكراً على التيارات الإسلامية الفكرية، بل حتى في المذاهب الفكرية الوضعية فقد تطورت العلمانية بأشكالها إلى الليبرالية ومن ثم إلى الحداثة ونحن الآن في عصر ما بعد الحداثة.

هذه المعطيات تتطلب منا دراسة هذه التيارات في خطها البياني الزمني للوقوف على أهم الانعطافات والتحولات الفكرية التي طرأت على بنيتها، فلم يعد القول عن فلان أنه سلفي يعطيك دلالة واضحة عن هويته الفكرية ولا عن فلان أنه إخواني يكفي للحكم على مبادئه أو فلان الجهادي، وأنت تجد أصحاب الدراسات المناحزة بالولاء لتيار ما يسلطون الأضواء في دراساتهم على التيار في مرحلة نقاشه وعطائه وصفائه،

والمتحاملون يسلطون الأضواء على مرحلة التمييع والانحراف والاختراق بغية التسقيط الكلي والتعامي عن الحسنات والأسباب المبررة للتغيير.

على أننا إلى الآن لم نشهد تياراً انتفع بمراجعات المصلحين من داخله وآب إلى خطه الأصيل بسببه، والتي غالباً ما تنتهي بحالة من الانشقاق عن التيار الأم إلى حركة إصلاحية ويبقى التيار متقلباً في انتكاساته وانحرافه.

#### النتيجة:

يجب على أبناء التيات المؤدلجة التي تدين بالولاء لمناهجها وتياراتها أن تتحقق من نسبة هذه التيات التي ينتمون إليها لهويتها الأصيلة وأن يلحظوا البون الشاسع بين ما هم عليه اليوم وما كانوا عليه والتنقيب الجيد في تراثها.

وسيلحظون أن هناك انحرافاً طويلاً سارت فيه هذه الجماعات ولم تشعر به تحت سلطان التخدير بالشعارات الظاهرة والتناقض مع الجوهر، وأنا على يقين جازم أن الكثير منهم سيعودون للالتقاء مع تيارات أخرى كانوا ينظرون إليها نظرة البراء وسيتركون كثيراً من الأفكار والجماعات التي كانوا يدينون لها بالولاء.

يستطيع الحاذق أن يسقط ما قلنا على أي تيار فكري بدون تعين ليلحظ مصداق ما نقول، ولم أسمّ تياراً بعينه تاركاً للقارئ

الكريم أن يحلل ويسقط ويقارن.

والله من وراء القصد

مشاركات نور سورية

المصادر: